دور رحلة الحج وأثرها في تعليم اللغة العربية في غرب إفريقيا"نيجيريا نموذجا"

الدكتور طه عبد الرحمن ساكن(*)

ملخص البحث:

يعود انتشار الإسلام في السودان الغربي، أي المنطقة الواقعة جنوب الصحراء الكبرى، والممتدة من المحيط الأطلسي إلى بحيرة تشاد، ومع خط يمتد من هذه جنوباً نحو خليج غينية، إلى القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، إن لم يكن قد وصل بعض أجزاء المنطقة قبل ذلك التاريخ. لكن القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي هو الذي شهد اندفاع أهل العلم لنشر الإسلام، كما كان للتجار دور كبير في ذلك،والذي نستطيع أن نؤكده أن انتشار اللغة العربية والثقافة الإسلامية في أفريقيا واكب انتشار الإسلام، فهما متلازمان؛ حيثما دخل الإسلام تدخل معه اللغة العربية، ولا يكاد الإسلام يستقر في مدينة أو قرية حتى يفتح الدعاة أو التجار مدرسة لتعليم القرآن الكريم، ومبادئ الدين، واللغة العربية التي لا يفهم الإسلام فهماً صحيحاً دونها، وكذلك كان للحج دور كبيرٌ في نقل اللغة العربية والثقافة الإسلامية إلى القارة السمراء؛ وذلك عن طريق جلب الكتب، وكان بعض الحجاج يبقون في الحجاز بعد الحج للدراسة وتحصيل العلم والمعرفة ، ثم يرجعون إلى بلدانهم لنشر العلم الذي حصلوه في الحجاز، وكان بعض الأمراء والملوك لما يقومون برحلة الحج، يجلبون إلى بلدانهم علماء لتعليم شعوبهم الإسلام واللغة العربية، ويجلبون معهم كتبا في الفنون الإسلامية والعربية.وبهذه الطرق وصلت كتب كثيرة إلى أرض إفريقيا، وبخاصة غربها، مما ساعد على انتشار اللغة العربية والثقافة الإسلامية، وأصبحت اللغة العربية لغةَ الدين والثقافة والحياة الإدارية، وأصبح الحرف العربي هو الحرفَ الذي تكتب به أشهر اللغات الإفريقية، مثل الهوسا والفلانية والسواحلية والولوفية، وأصبحت المنطقة بسبب الإسلام ولغته عظيمةَ الحضارة والتقدم، وسرعان ما شكل الإسلام عادات السكان، وطور أحوالهم حتى صار مستوى التفكير والثقافة في غرب إفريقيا مثل غيره من البلاد الإسلامية. وأول ما يضرب به المثل بهذا الصدد، مدرسة العلوم العربية التي أسَّسها أربعةٌ من العلماء السودانيين سنة ١٩٣٤م، وكان ذلك إثر زيارة أدَّاها وزيرُ أميرِ كانو محمد غطاطو إلى السودان بعد عودته من أداء فريضة الحج، فدفعه الطُّموح للعلم والمعرفة، إلى زيارة قسم الشريعة التابع لكلية غردون (جامعة الخرطوم حالياً). فوقف على نظام التعليم الشرعي وِفْقَ الطرق والمناهج الحديثة، ولما عاد إلى بلاده أشار على أمير كانو وقتئذ (الحاج عبدالله بايرو) بتأسيس مدرسة لتعليم العلوم الشرعية على غرار قسم الشريعة الموجود في السودان، وسرعان ما وافق الأمير على ذلك، ولكن السلطة الاستعمارية التي تتحكم في البلاد حينئذ، لم توافق على مبادرة الأمير، إلا بعد إصرارٍ وإلحاح شديدين، وتقول بعد المصادر أن موافقة الإنجليز جاءت نتيجةَ مشورةٍ من بعضهم بأنه من الأحسن أن يؤذن لأهل الشمال بتأسيس مثل هذه المدرسة الدينية، حتى لا يضطروا إلى إرسال أبنائهم إلى البلاد العربية، وكانوا يخشون ذلك خوفاً من أن يتأثروا بالحركات المناوئة للاستعمار في البلاد العربية، وخاصة مصر.وبعد الموافقة على تأسيس المدرسة، تمَّ

(*) محاضر في كلية المنار بولاية كدونا – نيجيريا

انتداب ثلاثة من كبار الشيوخ من السودان لإرساء قواعدها، على رأسهم. الشيخ بشير الريح (وهو أول عميدٍ لمدرسة العلوم العربية). ويناقش الباحث من خلال هذه الورقة أثر طرق الحج في نشر اللغة العربية في غرب إفريقيا عموما والتركيز على دولة نيجيريا خصوصاً.

تهدف هذه الدراسة إلى تحقيق التالي:

١-إلقاء الضوء على رحلات الحج التي أدت إلى التقاء أهل السودان الغربي، بأهل البلاد الإسلامية في المشرق الإسلامي، وخاصة رحلات الحج التي قام بها ملوك مالي وسنغي، وعلى رأسهم الملك منسى موسى، الذي بلغت إمبراطورية مالي أوج قوتها وازدهارها في عصره..

٢- توضيح مسالك وطرق الحج التي سلكها أهل السودان الغربي في طريقهم إلى بلاد الحجاز لأداء المناسك وترتيبات القوافل للحج .

٣- تجلية أثر رحلات الحج على ازدهار المدن الإسلامية في دولتي مالي وسنغاي، كمدينة تنبكت وجنى ،حيث كانت مركزاً لجذب طلاب المشرق، وعلمائهم؛ مما كان له الأثر في التبادل العلمي والثقافي والحضاري .

٤- توضيح أثر رحلات الحج على سكان السودان حيث ساهم الحجاج في تصحيح الكثير من المفاهيم الخاطئة والبدع والعادات التي كانت منتشرة بينهم .

٥- تجلية أثر الإسلام والحضارة العربية على السودان الغربي منذ وقت مبكر من التاريخ الإسلامي، من خلال توضيح أهمية رحلات الحج في نقل الحضارة من بلاد المشرق إلى السودان الغربي.

RESEARCH SUMMARY

The early history of spread and propagation of Islam in Sub-Saharan West African countries from Atlantic Ocean to lake Tchad, which extended to Guinea gulf was said to be dated back to 14th AH/10th AD, even though it was acknowledged that before the above mentioned time, Islam has already reached in some parts of the continent. However, in 15th AD, it was testified that Missionaries and Traders played a vital role in rapid propagation of Islam in West Africa. Islam always goes hand in hand with Arabic Language and its civilization. However, wherever you see Islam, you would definitely see Arabic language. In nutshell, Arabic and Islam civilization are the fundamentals. In every society, communities, villages and cities where Islam is established, school would also be established by Islamic Scholars for teaching Qur'an, Basic education of Islam which helped tremendously towards the propagations of Arabic Language.

Pilgrims also played an essential role in conveying Arabic and Islamic civilization to the continent, through obtaining Books from Middle East while some use to remain there for study, after the knowledge is obtained; they come back to their countries for teaching.
Meanwhile, leaders, kings, teachers and preachers are carriers and conveyors of Islamic Books, to Africa, especially the western part of it. This gives room for the spread of Islam and Arabic civilization. As a result, Arabic became a language of religion and management. Consequently, Arabic alphabets are use in writing the famous languages in Africa, such as Hausa, Swahili and Wolof. West Africa is automatically transformed by Islam and Arabs.

A clear example is the Arabic school founded by four Sudanese scholars in Kano – 1934. The school was established as a result of official visit of Wazir Aminu Muhammad Gidado to Sudan on his way back from Hajj. Later, is upgraded to college of Shari'a, affiliated by University of Khartoum. The upgrade occurred during the regime of His Royal Highness Abdullahi Bayero. The colonial masters rejected the idea at the beginning, but later approved, in order to avoid people travelling to Middle East. Finally, Sudan deployed scholars; among them was Sheikh Bashir Arrayyah; the first Director of the college.

The paper highlighted the role of Hajj in learning Arabic Language in Nigeria and West Africa at large.

تمهيد:

دأب مسلمو غرب إفريقيا، على تنظيم رجلات جماعية إلى الحجاز، بغية أداء مناسك الحج، وزيارة الروضة الشريفة، غير مكترثين بالمعوقات والصعاب، بيد أن أهم ظاهرة طبعت هذه الرحلات، الإشراف الفعلي لملوك وأمراء الحواضر الإسلامية السودانية عليها، ورعاية شؤون الحجاج مادياً وأدبياً "وهكذا أصبح خروج المسلمين من غرب إفريقيا – ملوكاً وشعوباً إلى الحج، واتصالهم بالشعوب الإسلامية المختلفة في المغرب– والسودان– ومصر–والحجاز – تأكيداً لروح الأخوة الإسلامية التي فرضها الإسلام"[١]. ويظهر أن المغرب كان محور التقاء وفود الحجاج السودانيين، وهناك ينضمون إلى وفود الحجاج المغاربة ثم يتجهون في ركب واحد صوب ليبيا ومصر ثم أرض الحجاز، مما يتيح الفرصة للاحتكاك والتفاعل وبخاصة بين رواد المعرفة وأهل العلم. ومن سلاطين السودان الذين قادوا ركب الحجيج، السلطان منسا موسى المالي ت ٧٢٤هـ ١٣٢٣م. وتشير المصادر إلى هذا الوفد يكلل بكثير من الإكبار والإجلال، وتروي المصادر أنه ضم أكثر من عشرة آلاف حاج، وقد عبر الوفد أرض المغرب، ثم مصر في عهد السلطان المملوكي الناصر بن قلاوون، ويظهر أن المغاربة اهتموا بمقدم سلطان مالي هذا، وإحاطه سلطانهم وأعيان البلاد وعلماؤها، وحتى عامتها بقسط لا بأس به من التقدير والإعجاب "فأصدر سلطان المغرب أوامره بحراسة موكب السلطان المالي أثناء اجتيازه الصحراء، ولبست المملكة حلة الزينة لاستقبال ضيف المغرب الذي أحاطت به مظاهر الابتهاج والبذخ وحمل معه أحمالاً من الهدايا قدمت إلى الحضرة بفاس"[2].كانت رحلة الحج تستغرق أعواما، و أقل ما تكون ٣ سنوات. و كان الحجاج ينطلقون من ديارهم، و يجمعون تكاليف الحج خلال رحلتهم إلى السودان، التي قد يستقرون بها خلال رحلة العودة بعد أداء فريضة الحج، أعداد الحجاج كانت قليلة لارتفاع تكاليف الحج و خطورة الطريق والخوف من الاسترقاق.

المبحث الأول: انتشار الإسلام بالسودان الغربي:

يرجع الفضل في انتشار الإسلام في السودان الغربي– إلى بلاد المغرب عبر الصحراء الكبرى[1] والحقيقة أن السودان الغربي ارتبط ببلاد المغرب، بعلاقات اقتصادية منذ أقدم العصور، حيث كان سكانه يستوردون مادة الملح الموجودة في بلاد المغرب وبالمقابل كان التجار المغاربة يستوردون الذهب من بلاد السودان الغربي.[2]

١–شوقي عطا الله الجمل: المقال السابق ص١٤٤.وانظر أيضاً: عبد الرحمن السعدي: تاريخ السودان ص١٦

[2] شوقي عطا الله الجمل: المقال السابق ص١٤٥.

[1] نبيلة حسن، تاريخ إفريقية الإسلامية ،ص١٣١

[2]حسن احمد محمود، الإسلام والثقافة العربية في إفريقيا، درا الفكر العربي، ١٤٢٦÷، ص ١٦١.

وتعود البدايات الأولى لانتشار الإسلام في السودان الغربي إلى أيام الفتوحات الإسلامية لبلاد المغرب في القرن الأول الهجري ، حيث وصل عقبة بن نافع سنة ٢٢هـ/٦٤٣م إلى زويلة على الحدود بين بلاد المغرب والسودان الغربي ، ثم واصل فتوحاته في شمال إفريقيا في أيام الدولة الأموية حتى وصل إلى أغمات(وتذكر بعض الروايات أنه توغل في غرب إفريقيا حتى وصل إلى بلاد غانة والتكرور [3].

ويشير الرحالة الألماني بارث إلى أن الإسلام وصل إلى غانة من بلاد السودان الغربي منذ سنة ٦٠هـ/٦٨٠م، وأن عقبة بنى مسجداً هناك، وهذه الرواية تعني أن مملكة غانة كانت عظيمة الاتساع بحيث وصلت حدودها لتتاخم الحدود الجنوبية لشمال إفريقيا. وبعد وفاة عقبة سنة ٦٤هـ/٦٨٣م، أسندت الدولة الأموية مهمة مواصلة الفتوحات الإسلامية في شمال إفريقيا – إلى واليها موسى بن نصير سنة ٨٦هـ/٧٠٥م، الذي وصل إلى حدود السودان الغربي الشمالية عند مدينة أغمات وبنى فيها مسجداً[4] ، وأول إشارة واضحة لقيام الدولة الأموية بإرسال حملة منظمة إلى بلاد السودان الغربي، يوردها خليفة بن خياط في تاريخه في أحداث سنة (١١٦هـ/٧٣٤م)

فيقول: (وفيها سير ابن الحبحاب عبد الرحمن بن حبيب، أبي عبيدة بن عقبة بن نافع إلى السوس وأرض السودان فظفر وأصاب ذهباً كثيراً)[5]

والمقصود بأرض السودان في رواية خليفة هو السودان الغربي، حيث تشير الرواية إلى أن المسلمين عادوا معهم بالذهب، مما يرجح أن يكون عبد الرحمن بن حبيب قد دخل بلاد السودان الغربي سنة ١١٦هـ/٧٣٤م.[6]

وفي العصر المملوكي زاد اتصال مصر بغرب إفريقيا من خلال القوافل التجارية، التي كانت تتردد بين مصر وغرب إفريقيا ،وكان الحج من أهم عوامل تدعيم العلاقات بين مصر وبين هذه البلاد، إذ يبدوا أن حجاج غرب إفريقيا كانوا يمرون بمصر في طريقهم إلى الحج، وبعد عودتهم منه ،وهناك اتصال منذ القدم بين غرب إفريقيا وبلاد المغرب عبر الصحراء الكبرى ،ولا يمكن للباحث أن يفهم تاريخ الإسلام في غرب إفريقيا إلا في ضوء تاريخ المغرب وأحداثه[1]. ويمكن القول إن العامل الحاسم المؤثر في انتشار الإسلام في غرب إفريقيا يتمثل في هجرات البربر نحو غرب إفريقيا، ومن ثم دخولهم في الإسلام منذ عهد موسى بن نصير، ولكن الجهود الحقيقية لنشر الإسلام في غرب إفريقيا تمت في عهد الأدارسة، حيث تأكد إسلام هذه القبائل منذ القرن (٥هـ) فصاعداً.[2]

---

[3] اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج أ ص ٣٣٩ ، الدمشقي ، محمد بن أبي طالب الانصاري نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، مكتبة الثنى بغداد، (د – ت)، ص ٢٦٨ .

[4] الحميري: أبو عبد الله محمد بن عبد المنعم، الروض والمعطار في خير الاقطار، تحقيق أحان عباس، مكتبة لبنان، بيروت ، ط٢، ١٤٠٤هـ ، ص ٢٩٥.

[5]حسن احمد محمود، مرجع سابق، ص٥٨

[6]النفس المرجع، ص ٥٨–٦٠

[1]نبيلة حسن، تاريخ إفريقية الإسلامية، ص١٣١

[2]نعيم قداح: إفريقيا الغربية في ظل الإسلام، الشركة الوطنية، الجزائر، ط٢، (د–ت) ص ٨٥

وكان للمرابطين أثر كبير في نشر الإسلام في ربوع السودان الغربي وقد دخلوا إلى غرب إفريقيا عن طريق النهاية القصوى لسهل المحيط الأطلسي، ثم انحدروا جنوبا حتى حوض السنغال، ثم وقفوا عند حدود المنطقة الاستوائية .[3]

ويمكن القول إن انتشار الإسلام إلى غرب إفريقيا تم من خلال طريقين ،الأول : الطريق الساحلي عبر حوض السنغال، وهو الذي سلكته جموع المرابطين والثاني : تسرب الإسلام في مدن إفريقيا الشمالية إلى بعض المراكز القائمة على حافة الصحراء عن طريق التجارة.[4] ومما سبق نستنتج أن الإسلام لم يصل إلى هذا الجزء من القارة الإفريقية عن طريق جيوش الفتوحات الإسلامية، بل انتشر بالطرق السلمية من خلال الدعاة والتجار والحجاج، مع الإقرار بحقيقة مهمة، وهي أن الفتوحات الإسلامية لشمال إفريقيا، مهدت الطريق أمام الجميع لممارسة هذه المهمة العظيمة لنشر الإسلام جنوب الصحراء الكبرى، وتحديداً بلاد السودان الغربي.

المبحث الثاني: أهمية رحلة الحج في نشر الثقافة الإسلامية واللغة العربية بغرب إفريقيا:

ومما أعطى رحلات الحج أهمية كبيرة، هو قيام ملوك مالي وسنغاي بالتوجه إلى مكة لأداء فريضة الحج، ومن هؤلاء الملوك نذكر ملك مالي موسى كيتا (٦٦٩-٦٧٣هـ/١٢٧٠-١٢٧٤م)، الذي حج خلال فترة حكمه ثلاث مرات، ومن بعده الملك منسى ولي(٦٥٢-٦٦٩هـ/١٢٥٥-١٢٧٠م)، الذي حج زمن السلطان الظاهر بيبرس ثم الملك ساكورة(٦٨٤-٧٠٠هـ/١٢٨٥-١٣٠٠م) الذي حج زمن السلطان الناصر محمد بن قلاوون . "ويعد الملك منسى موسى(٧١٢-٧٣٧هـ/١٣١٢-١٣٣٧م) أشهر ملوك مالي ،وكانت حجته سنة ٧٢٤هـ/١٣٢٥م أشهر حجة قام بها ملك من ملوك السودان، حيث رافقه في موكبه خلق كثير .وقد اشتهر هذا الملك الشاب في الشرق العربي الإسلامي كله بسبب رحلة الحج الكبيرة، التي قام بها إلى الأراضي المقدسة. وقد بدأ رحلته من (تمبكتو)، ومعه حاشية كبيرة العدد ،ودارت حول تلك الرحلة حكايات أحاط بها الخيال ،وأحاطت بها المبالغة؛ فقد ذكر المؤرخون المعاصرون ،ومن نقلوا عنهم من اللاحقين ،أرقاما تفاوتت بين ستين ألفا في تقدير المكثرين، وخمسة عشرة ألفا في تقدير المقلين". كانت مصر آنذاك المحطة التي يتوقف عندها الحجاج القادمون من غرب إفريقيا ،وشمال إفريقيا في طريقهم إلى الحجاز لأداء فريضة الحج ،ولقد وصلت قافلة منسى موسى مدينة القاهرة في السادس عشر من شهر رجب سنة (٧٢٤هـ العاشر من مايو سنة ١٣٢٤م.وقد أورد المقريزي في كتابه (السلوك لمعرفة دول الملوك) نصا مقتصرا عن تلك الرحلة على الرغم من رواياته المفصلة عن تلك الرحلة في كتبه الأخرى ،إذ قال "وفي شهر رجب قدم منسى موسى ،ملك التكرور ،يريد الحج وأقام تحت الأهرام ثلاثة أيام في الضيافة ،وغادر منسى موسى ومن معه إلى بر مصر يوم الخميس السادس عشر من شهر رجب وطلع القلعة، ليسلم على السلطان ،وامتنع عن تقبيل الأرض ،فلم يجبر على ذالك ،غير أنه لم يمكن من الحضور في الحضرة السلطانية، وأمر السلطان بتجهيزه للحج،وعندما حان الرحيل ،أمر السلطان الناصر محمد بن قلان ،بعمل الترتيبات اللازمة لسفر منسا

---

[3] حسن احمد محمود، الإسلام والثقافة العربية في إفريقيا ص٥٨

[4] المرجع نفسه ،ص ٥٨-٦٠

موسى من القاهرة إلى الحجاز مع حاشيته، ضمن ركب الحجاج المصريين بقيادة (الأمير سيف الدين ايتمش)أمير تلك السنة ،وكانت تعليمات السلطان للأمير تقضي بالعمل على راحة الملك منسا موسى حتى ينتهي من أداء مناسك الحج، ويعود سالما. كما أمر السلطان الناصر محمد إلى المسؤولين عن الحج أثناء الطريق بالسهر على راحة الملك الأسمر،وفي منتصف ذي الحجة غادرة قافلة الحج المصرية القاهرة في طريقها إلى الحجاز ،وقد عامل الملك الإفريقي المسلم رفاقه من الحجاج الآخرين في القافلة بسخاء بالغ وكرم فائق الحدود المألوفة في ذالك الزمان[1]". فقد حصل منه الدليل الذى كان بصحبته، مثلا، على ما يزيد عن مائة مثقال ذهبا.

وعندما وصلت القافلة إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة أنفق منسا موسى الكثير من الأموال، كما تصدق بمال كثير على الأهالي والحجاج والمجاورين في المدينتين المقدستين. وعندما عاد الملك الأفريقي إلى القاهرة ، في طريق عودته إلى بلاده، كان أكثر كرما وسخاء. كانت الأشياء التي انطبعت في ذهن إمبراطور مالي الشاب، في أثناء زيارته للشرق العربي كثيرة . لقد أراد الملك أن يؤدى فريضة الحج شأن كل مسلم، وكان في ذهنه الامتيازات السياسية، التي ترفع من مكانته في عيون رعاياه بسبب هذه الرحلة؛ فضلا عن تدعيم صلاته وروابطه السياسية بسلطنة المماليك التي كانت آنذاك أهم قوة إقليمية في العالم العربي والإسلامي.[2] وربما كان الأمر ذو الأثر البالغ في هذه الصلات التي قامت بين مملكة مالي الإسلامية ودول الشرق العربي، يتمثل في التمسك بأحكام الشريعة الإسلامية الصحيحة التي أدخلها علماؤهم في بلادهم، بعد أن تعلموا في القاهرة أو في الحجاز. ومنذ تلك الفترة صارت دول غرب إفريقيا مسلمة في بنيتها، حيث تبنت ما تم نقله من الشرق العربي المسلم من عقائد وممارسات ومظاهر مادية ولامادية، وتعتبر الآن، مع دول المغرب العربي في شمال أفريقيا، الجناح الغربي للعالم الإسلامي كله.

ومن ملوك سنغاي الذين قاموا بأداء فريضة الحج الملك أسكيا محمد(٨٩٣-٩٢١هـ/١٤٩٣-١٥٢١م) الذي زار مصر في طريق عودته.[3]

لقد كان من نتائج رحلات الحج من بلاد السودان الغربي توفير فرصة للحجاج لتعلم أمور دينهم من خلال الاحتكاك بإخوانهم المسلمين، أثناء أداء شعائر الحج ،وأثناء مرور الحجاج بالمراكز العلمية المشهورة في ذلك الوقت تمكن الحجاج من الالتقاء بالعلماء والفقهاء، واطلعوا على مؤلفاتهم في شتى العلوم ،ويعود الحجاج بعد ذلك بحماسة عالية وهمة كبيرة لتعليم الناس أمور دينهم، بعد عودتهم من الحج. وبنظرة سريعة إلى رحلة الحج التي قام بها ملك مالي (منسى موسى) سنة ٧٢٤هـ/١٣٢٥م، والسلطان (أسكيا محمد) سلطان سنغاي سنة٨٩٩هـ/١٩٩٨م، ندرك أهمية هذه الرحلات، فالملك (منسى موسى) عاد إلى بلاده، وبصحبته كلٌ من الفقيه المالكي عبد الرحمن التميمي الذي عمل على نشر الإسلام في مالي،كما كان بصحبته الشاعر الأندلسي إبراهيم الساحلي، الذي اشتهر عنه مهارته في فن

---

[1] للدكتور قاسم عبده قاسم ، مسلمو غرب أفريقيا على طريق الحج عبر مصر فى زمن السياد الإسلامية، ص:١٥،١٤ .

[2] نفس المرجع ، ص:١٦.

[3] للدكتور على أبوبكر ، الثقافة العربية في نيجيريا، ص:٦٥.

العمارة ،حيث قام ببناء المساجد والقصور في مدينة جاو وتنبكتو، مما كان له أكبر الأثر في تطور فن العمارة في بلاد السودان الغربي، كما بنى قصرا فخما للملك منسى موسى ،وإليه يرجع الفضل في إدخال فن البناء بالآجر في السودان الغربي" ومن مصر اشترى هذا الملك كتباً كثيرة في الفقه المالكي، أما السلطان (أسكيا محمد) سلطان سنغاي، فقد تأثر بما رآه في مصر من نظم الحكم والإدارة، فعاد إلى سنغاي ليطبق الكثير من هذه النظم في بلاده، كما اتصل بعلماء مصر أمثال الإمام السيوطي (ت ٩١١هـ/١٥١٢م)، ولذلك عندما عاد إلى سنغاي نراه يحيط نفسه بالعلماء والفقهاء ويكرمهم، ويشجع على طلب العلم، ويولي جامع تنبكتو عناية خاصة[2]. هكذا يتبين لنا أن رحلات الحج كانت لها آثارٌ بعيدة المدى على الحياة الدينية والسياسية والحضارية في بلاد السودان الغربي.

المبحث الثالث: رحلة الحج من بلاد هوسا وأثرها في تعليم اللغة العربية

لقد كان المسلمون في نيجيريا يقومون بأداء فريضة الحج، مع أنه أمر شاق جداً في ذالك الزمن،وكان يستغرق عدة سنوات، فكان الحجيج يخرجون في قافلة صوب الشرق، ويتكسبون في الطرقات، إما بالتجارة أو الصناعة أوكليهما، وربما يقومون في بعض الأحايين بالأعمال الزراعية،إما لغيرهم أما لأنفسهم، ويقوم بعضهم بالتدريس خلال السفر كما يقوم بالتعلم إذا صادف من هو أعلم منه في الطريق ،وكان أمثال ذالك إذا مر بالأزهر، انتهز الفرصة، واستمعوا إلى مشايخه، وإلى علمائه الكبار ،واتصلوابهم وبغيرهم من العلماء، وكونوا صداقة معهم، وأفادوا واستفادوا في العلم[3]. والذي يغلب على الظن أن أمثال هؤلاء كثيرون، لكثرة من يقوم بأداء هذه الفريضة من غربي إفريقية.ولكن كتب التاريخ لم تذكر إلا القليل ممن نبغ واشتهر منهم ،ولعل السبب في ذالك يرجع إلى قلة من كتب في هذا المجال، وعدم وجود أي سجل رسمي أوغيره. واستمر الحج عاملا مهماً لنشر التعليم الديني و العربي خلال تلك القرون، ولم يزل الأمر كذالك إلى القرن الثامن عشر الميلادي وبداية دولة سكتو. ولقد ذكرت المراجع أن بعض العلماء قاموا بنفس العملية في القرن العاشر الميلادي، وبداية دولة سكتو. ومن أولئك العلماء ذالك العالم الكبير الشيخ جبريل الذي درس الشيخ عثمان بن فوديو ،فقد حج مرتين، وأقام مدة طويلة في المرة الأولى، وكذالك الشيخ محمد سمبو بن عبد الله ،وكان من أشهر العلماء في القرن الثامن عشر .وهو الذي يقول عنه عبد الله بن فوديو: إنه" لم يترك فينا حين خرج أفضل منه في العلم والصلاح"، ومع تضلعه في العلم فقد قضى أكثر من عشر سنوات في الحرمين لما حج ودرس هناك طلبا للعلم وفي طريق عودته إلى وطنه وافته المنية في أقدس .ورثاه عبد الله بن فوديو بأبيت منها، قوله.

إلى الحرمين حتى قام عشرا وبضعا فيهما يبني المعالي
فقدر ربه سوف يبدو بأقدس قبره بعد الزوال

وبما أن الحجاج يقضون فترة طويلة في الشرق، فإنهم يتعلمون خلالها اللغة العامية المستعملة في الحجاز ،كما أنهم يأتون ومعهم كتب للغة العربية والدراسات الإسلامية هذا مما جعل رحلة الحج هي

---

[2] الدكتور شيخو أحمد سعيد غلادنشي ، حركة اللغة العربية وآدابها في نيجيريا ، ط٢، ١٩٩٣م مرجع سابق ،ص٦٢.

[3] نفس المرجع

رحلة لها أكثر من معنى، ويتجلى واضحا من خلال هذا السرد للمعلومات الموثقة من مصادرها القديمة والحديثة.[1]

منذ أن تعرف الهوسا على الإسلام في أواخر القرن الثالث عشر – حرصت أعداد كبيرة منهم إلى الحج وتاريخ أداء الحج في غرب إفريقيا، يرجع إلى عهود عديدة، فالحج كان ركناً أساسياً من أركان الإسلام، بالإضافة إلى كونه مناسبة اجتماعية وثقافية وسوق اقتصادي وعنصر مهم في حركة الناس، وتنقلهم حيث هيأ الإسلام المناطق الإفريقية التي دخلها أن تقبل بالحضارة العربية الإسلامية، حيث أحدث هذا الدين نشاطاً ثقافياً، وحراكاً اجتماعيا بالنسبة لسكان غرب إفريقيا، لم يكن الحج مناسبة دينية فقط بل كان وسيلة اتصال بمنابع الحضارة الإسلامية، وكانوا يقطعون رحلة شاقة عن طريق البر أو البحر، ومن الحج يكتسب الكثير من الممارسات الدينية والروحية، التي تضف على الحج درجة عالية من الاحترام، وترفع من مكانته الاجتماعية، بالنسبة للبعض قد يجذب بالنشاط العلمي في القاهرة، أو الحياة الروحية والحياة العلمية في مكة والمدينة، فيبقى في هذه الأماكن مجاوراً مدى الحياة أو لبعض السنين.من الصعب أن نؤرخ إلى استقرار الهوسا في السودان، غير أن المؤرخين يؤكدون أن طرق الحج عبر السودان– كانت سالكة منذ بداية القرن الثامن عشر، أن حجاج غرب إفريقيا ابتداء من السنغال ومالي، يؤدون فريضة الحج عبر السودان. فاستقرار الهوسا في السودان كان مصاحباً لرحلة حجهم والعوامل الاقتصادية المصاحبة لذلك، حيث تستغرق رحلة الحج ثلاث إلى سبع سنوات، رغم أن الغالبية العظمى من هؤلاء الحجاج يوفقون في أداء الحج والعودة إلى بلادهم، إلا إن البعض قد لا يتمكن من الوصول إلى الأراضي المقدسة، كما أن البعض يتخلف. عرفت جمهورية السودان منذ زمن بعيد بوصفها معبراً للحاج الإفريقي القادم من غرب إفريقيا، فقد كانت تشمل عدد من الطرق التجارية، ومنذ دخول الإسلام إلى إفريقيا كانت قوافل الحجاج تتجه إلى الديار المقدسة قاطعة آلاف الأميال قبل أن تصل إلى موانئ البحر الأحمر.[1]

لقب الحاج: يشير لقب الحاج إلى مكانة اجتماعية متميزة لصاحبه، كما يحظى صاحبه بتقدير، وتبجيل في نطاق مجتمعه، وفى المجتمعات الإفريقية يجد هذا اللقب مكانة عظيمة في المجتمع.

طرق الحج: كانت الطرق التي يسافر عبرها الحجاج هي طرق التجارة، وعادة ما يحدث بسبب الأحوال الأمنية ورغم أن طرق الحج التي تعبر السودان كانت معروفة منذ زمن بعيد من خلال درب الأربعين والطرق التجارية من كرد فان عبر الأبيض – شندى – سواكن – أو عبر الأبيض – سنار – سواكن إلا إن وصول خط سكة حديد عام ١٩١١م إلى الأبيض عزز من دورها كونها كانت بوابة العبور لحجاج إفريقيا الغربية. قوافل الحجاج من غرب إفريقيا تصل الأبيض عن طريق الجنينة، وكانوا في بعض الأحيان يقطعون هذه المسافة سيراً على الأقدام، حيث يستغرق ذلك سنوات، وكان الكثيرين لا يكملون الرحلة، إذ تتقطع بهم السبل، فيطرون للعمل ثم مواصلة الرحلة، وبعضهم لا ينجح في إكمال هذه الرحلة لذا استقرت أعداد كبيرة منهم في السودان، عندما تحسنت الأحوال الاقتصادية في السودان

---

[1] الدكتور شيخو أحمد سعيد غلادنشي ، المرجع السابق ، ،ص٦٣

[1] هارون المهدي ميغا ، التاريخ والحضارة الإسلامية في غرب إفريقيا ، ص١٤

نتيجة للاستقرار السياسي الذي قامت به السلطات البريطانية، بتطبيق سياسات اقتصادية جديدة، تجسدت في إنشاء خزان سنار، وقيام مشروع الجزيرة عام ١٩٢٥م فتحول هؤلاء العابرون من مسافرين إلى مهاجرين، حيث أتيحت لهم فرص العمل في هذه المشاريع وزادت أعدادهم في السنوات التالية ساعد ذلك في أن يكمل الكثير من هؤلاء رحلتهم إلى الديار المقدسة، بعد أن وفر لهم العمل مصاريف الطريق، وعند العودة، يستقرون في تلك المناطق داخل مشروع الجزيرة. أدى ذلك إلى انتشار الهوسا بأعداد متفاوتة في أنحاء السودان.

"وأول ما يضرب به المثل بهذا الصدد، مدرسة العلوم العربية التي أسَّسها أربعةٌ من العلماء السودانيين سنة ١٩٣٤، وكان ذلك إثر زيارة أدَّاها وزيرُ أميرِ كانو محمد غطاطو إلى السودان بعد عودته من أداء فريضة الحج، فدفعه الطُّموح للعلم والمعرفة، إلى زيارة قسم الشريعة التابعة لكلية غردون (جامعة الخرطوم حالياً). فوقف على نظام التعليم الشرعي وفق الطرق والمناهج الحديثة، ولما عاد إلى بلاده أشار على أمير كانو وقتئذ (الحاج عبد الله بايرو) بتأسيس مدرسة لتعليم العلوم الشرعية على غرار قسم الشريعة الموجود في السودان، وسرعان ما وافق الأمير على ذلك، ولكن السلطة الاستعمارية، التي تتحكم في البلاد حينئذ لم توافق على مبادرة الأمير إلا بعد إصرارٍ وإلحاح شديدين، وتقول بعد المصادر، أن موافقة الإنجليز جاءت نتيجةَ مشورةٍ من بعضهم بأنه من الأحسن أن يؤذن لأهل الشمال بتأسيس مثل هذه المدرسة الدينية، حتى لا يضطروا إلى إرسال أبنائهم إلى البلاد العربية، وكانوا يخشون ذلك خوفاً من أن يتأثروا بالحركات المناوئة للاستعمار في البلاد العربية، وخاصة مصر".[1]

وبعد الموافقة على تأسيس المدرسة، تمَّ انتداب ثلاثة من كبار الشيوخ من السودان لإرساء قواعدها وهم:-

أ. الشيخ بشير الريح (وهو أول عميدٍ لمدرسة العلوم العربية)

ب. الشيخ محمد صالح سوار الذهب ج. الشيخ النور التنقاري.

ولقد قدموا إلى نيجيريا براً في رحلةٍ مُضنيةٍ استغرقت ثلاثة أشهر، ركبوا فيها السيارات والحمير حتى وصلوا، إلى ولاية برنو، ومنها إلى مدينة كانو، حيث استقر الأمر فسميت بالكلية الشرعية ثم سمِّيت فيما بعد بمدرسة للعلوم العربية. لقد كانت هذه المدرسة إلى اليوم نبراساً للمعارف الإسلامية في نيجيريا اقتبس منها آلاف الناس من الأقاصي والأطراف في مختلف المجالات والتخصصات وكما يسميها أبناؤها "أم المدارس" فهي كذلك بحقٍّ، إذ أنجبت مدارسَ وجامعاتٍ ومعاهدَ كثيرةً، على رأسها جامعة بايرو كانو وكلية أمين كانو للشريعة والقانون.كما أن المدرسة ظلت حلقة وصل بين السودان ونيجيريا حيث أخذت مئات البعوث والإرساليات التعليمية تأتى من السودان للقيام بمهمة التدريس، فأجادوا وأفادوا بكل ما أوتوا من الحكمة والحنكة، وسخروا طاقاتهم الذهنية والجسميِّة لتنشأة أجيالٍ

---

[1] طه عبد الرحمن ساكن، إسهامات السودان في دفع عجلة اللغة العربية في نيجيريا ورقة مقدمة: إلى المؤتمر الدولي المنعقد في بايرو – كانو

في الفترة من ٩-١١-٦-٢٠١٥م.

[2]الدكتور شيخو أحمد سعيد غلادنشي ، مرجع سابق ، ،ص١٧

نيجيريين متزنين ومن بين هؤلاء العلماء – وهم كثيرون – الشيخ عوض محمد أحمد، والشيخ عبد القادر عمر، والشيخ الصدِّيق عمر أحمد، والشيخ على التُوم محمد، والشيخ إبراهيم صالح موسى.وآخر السودانيين إلى الآن ممن درَّسوا في مدرسة العلوم العربية المرحوم الشيخ نور الدين حسن، الذي انتقل إلى رحمة الله سنة ٢٠١١، بعد خدمة عظيمة الفوائد، وجليلة النتائج، قضاها خلال أربعين سنة مدرِّساً ونائب عميدٍ، وباحثاً ومؤلِّفاً تربوياً، عليه رحمة الله.ويمكن اعتبار مجموعة الشيخ البشير الرَّيح ممثلةً للمرحلة الأولى من العلاقات النيجيرية السودانية الثقافية عموماً في العصر الحديث. ولقد بدأت هذه المرحلة من سنة ١٩٣٤م إلى أواخر الستينات من القرن العشرين.[2]

المبحث الرابع: أثر رحلة الحج في تعلم اللغة العربية بغرب إفريقيا

من الصعب أن نحدد متى بدأت اللغة العربية تنتشر في إفريقيا، وبخاصة غربها، وتذكر[1] بعض المصادر أن تجار المغرب ومصر– كانوا يترددون على الأسواق الرئيسة في أفريقيا، وذلك في العقود الأخيرة للقرن السابع الميلادي، الموافق القرن الأول الهجري. ومن الطبيعي أن ينقل هؤلاء التجار لغتهم إلى القارة، وهذا في غربها، أما شرقها، وبخاصة الحبشة وما جاورها من البلدان مثل جيبوتي والصومال، فقد عرفوا اللغة العربية منذ قرون قبل البعثة المحمدية؛ لصلتهم بأرض الحجاز واليمن، ولكن الذي نستطيع أن نؤكده أن انتشار اللغة العربية والثقافة الإسلامية في إفريقيا واكب انتشار الإسلام، فهما متلازمان؛ حيثما دخل الإسلام تدخل معه اللغة العربية، ولا يكاد الإسلام يستقر في مدينة أو قرية حتى يفتح الدعاة أو التجار مدرسة لتعليم القرآن الكريم، ومبادئ الدين، واللغة العربية التي لا يفهم الإسلام فهما صحيحا بدونها، وكذلك للحج دور كبير في نقل اللغة العربية والثقافة الإسلامية إلى القارة.[2]

للغة العربية أهمية كبيرة في غرب إفريقيا، ولها تاريخ قديم في المنطقة، وقد توسعت الثقافة العربية بعد أن أصبحت غانا، دولة إسلامية، وبعد سقوط غانا واختفائها، بدأت مملكة مالي، تلعب الأدوار التي كانت تلعبها مملكة غانا الإسلامية سابقاً. ولمدينة تمبكتو، ومسجد سنكوري، فضل عظيم في بث الثقافة العربية الإسلامية. وفي مسجد سنكوري تخرَّج عدد لا يستهان به من العلماء المحليين؛ لأنه بمثابة جامعة الأزهر بمصر والحقيقة أن اللغة العربية انتشرت في غرب إفريقيا مع انتشار الإسلام فيها، وتأسست الممالك والدول التي اشترك فيها العرب والعجم في غانا، ومالي، وسنغى، وبرنو. واعتنى الملوك والأمراء بشأن التعليم، واستعانوا بالعلماء في فهم أمور الدين، وتطبيق الشريعة، فاضطر العلماء إلى التعمق في قواعد اللغة وآدابها، وفي أصول الشريعة وفروعها، فقصدوا بلاد العرب المجاورة لهم للاستفادة، واستقدموا إلى بلادهم العلماء العرب، لنشر العلوم بينهم، حتى نبغ الكثيرون، فألَّفوا الكتب، وقالوا الأشعار في الأغراض التي تناسب بيئتهم. وتلك نبذة من أسماء الرجال الذين غرسوا الثقافة العربية في بلاد السودان ،وبذلوا محبة العرب في قلوب العجم حتي صاروا يحبون العرب ويفضلونهم على أنفسهم، لأن النبي محمدا صلى الله عليه وسلم من العرب، وصاروا يحبون لغة العرب، لأنها لغة

القرآن ولغة النبي العربي، فتعلموا اللغة العربية كأبناء العرب، حتى ظهر منهم من إذا كتب أو خطب حسبته عربيا قحا، وذالك كله من آثار الإسلام في أمم السودان، ولا سيما الجانب الغربي منه.

إن اللغة العربية هي لغة القرآن الكريم، ولسان الترتيل، وأساس الإسلام، وترجمان عباداته، ومفتاح كنوز السنة المطهرة، ورباط الروح، ووشيجة القربى بين المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها.وهي اللغة الثرية ذات القابلية العجيبة للتطور، وهي الوعاء الأمين للتراث الإسلامي والعربي، وهي اللغة التي وصفها البروفسور هانري باستيد، أستاذ الحضارة المغربية بمدرسة اللغات الشرقية بباريس، بأنها "أكثر لغات الوجود روحانية" (جريدة لوموند الفرنسية ١٩٦٦/٨/٦)[1]' " لذا فإنها لغة القرآن الكريم، وذلك هو سر تعلق المسلمين بها، وتفانيهم في محبتها ومحاولة خدمتها، ولا سيما أولئك الذين مَنَّ اللّه عليهم بالإيمان به، وإسلام وجوههم له من غير العرب في إفريقيا، وخاصة في غربها.وفي الواقع وعلى سبيل الاستشهاد لا الحصر، أن نستشهد بنصوص من كتاب اللّه تبارك وتعالى، تبين لنا عمق الارتباط العضوي بين الإسلام، وبين هذه اللغة ،حيث يقول اللّه تعالى {إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون}. وفي قوله تعالى: {وكذلك أنزلناه قرآناً عربياً} وفي قوله تعالى:{قرآناً عربياً غير ذي عوج لعلهم يتقون}. وقوله تعالى:{وهذا لسان عربي مبين}.وقوله تعالى:{نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين}وهكذا وبكل وضوح إن القرآن الكريم، وهو دستور كل مسلم عربي اللسان، عربي الأساليب، والنبي المصطفى صلى اللّه عليه وسلم أفصح من نطق بالضاد، وآتاه اللّه جوامع الكلم كما صح عنه. ولقد سارت اللغة العربية – والحالة هذه – في ركب الإسلام، وفي مركب الكتاب العزيز، حيثما اتجهت الدعوة إلى اللّه بالحكمة والموعظة الحسنة، وسرعان ما أدرك المسلمون في شتى بقاع الأرض أهمية تعلم اللغة العربية لفهم الدين الإسلامي فهما صحيحا، كما أنزل من مصادره الأصلية وهي الكتاب العزيز والسنة المطهرة، لذالك قيل ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، من هذا المنطلق فإن المسلمين أدركوا هذا المعنى، واعتبروا اللغة العربية جزءاً لا يتجزأ من الدين الإسلامي،مادام الحال هكذا[2].

فمن المستحيل الاستغناء عن العربية، والاكتفاء بترجمة معاني القرآن، وتعاليمه بلغة أخرى، دون الرجوع إلى تناولها باللغة العربية، بل إن وظيفة الترجمة في حد ذاتها، تفرض وجود مترجمين فقهاء بلغة الترتيل، "لأن الأسلوب العربي بخصائصه الثابتة جزء لا ينفصم عن جوهر القرآن، ولا يمكن التجاوز عنه بأي حال من الأحوال".[1]

فمن هذا الأساس أصبحت اللغة العربية لغة الدين والثقافة والحياة الإدارية في غرب إفريقيا، منذ أن رسخت قدم الإسلام فيها، وأصبحت الثقافة الإسلامية، هي السائدة في المجتمع، وبخاصة في عصور الإمبراطوريات الإسلامية؛ مثل إمبراطورية مالي وسنغي، والفلانيون في سوكتو وماسنا وكانم وبرنو، وقد ظلت سائدة حتى مع سقوط الدول الإسلامية وسيادة الفوضى في عهد الرماة في تنبكت والمناطق المجاورة لها. "والناظر في الثقافة العربية الإسلامية في غرب إفريقيا يجد أن خير مقاييس لها هي: عدد

---

[1] غلادينشي ، مرجع سابق،ص ١٨-١٩-

[2] د. موسى عبد السلام مصطفى أبيكن ، ثنائية التعليم في نيجيريا .. اتجاهات وتطلعات .١٠/١١/٢٠١٠

[1] جريدة لوموند الفرنسية ١٩٦٦/٨/٦م

العلماء، وعدد الطلاب، وتنوع أماكن التعليم، وحركة التمدن،و الكتب الواردة، والمكتبات الخاصة ودرجة اتساع التأليف".[2]

وكان لعلماء المنطقة مساهمات فعالة في حركة التأليف، وقد ألفوا في فنون عدة؛ مثل الفقه والتاريخ والعقيدة والنحو والصرف وغيرها من العلوم الشرعية واللغوية. ومن أشهر المؤلفين في عهد سنغي الشيخ أحمد بابا، الذي اشتهر في داخل المنطقة، وخارجها بدروسه ومؤلفاته؛ ومن أشهرها تطريز الديباج. وبلغت حركة التأليف ذروتها في عهد الخلافة العثمانية في سوكتو، وفي عهد حركة الحاج الفوتي في غينيا والسنغال ومالي، وبخاصة في فترة اختلافه مع الشيخ أحمد لبو في ماسنا، حيث تبادلا رسائل عدة، يحاول كل منهما أن يقنع الآخر بفكرته، وتعكس هذه الرسائل متى تمكنهما من زمام اللغة العربية. وقد جمعت تلك الرسائل في كتاب بعنوان: "ما وقع" وكذلك الرسائل المتبادلة بين أحمد لبو وأمير المؤمنين في سوكتو في عهده الشيخ أبو بكر العتيق بن عثمان بن فوديو، وكذلك ساهم علماء منطقة أغاديس وتغيدا في حركة التأليف؛ ومن أشهرهم الشيخ جبريل بن عمر شيخ وأستاذ الشيخ عثمان بن فوديو. ولعلماء البرنو مساهمة مماثلة في هذا المجال، وبخاصة الشيخ أحمد فرتو، وهذه المساهمة تمثل مدى انتشار اللغة العربية والثقافة الإسلامية في منطقة غرب إفريقيا قبل الاستعمار. وفي مجال العلم والتعليم في إفريقيا ،أحدثت اللغة العربية ثورة علمية تجديدية ،واكبت كبرى حركات الدعوة الإسلامية في إفريقيا، مثل حركة الشيخ عثمان بن فوديو في شمال نيجيريا ،وحركة الشيخ أحمد لب في مالي، وحركة الشيخ عمر بن سعيد الفوتي في (السنغال) وحركة الشيخ محمد الأمين الكانمي في شرق نيجيريا.وقد استطاعت اللغة العربية، بما لها من قدم راسخت في إفريقيا، وانتماء أصيل لكيانها وتغلغل في وجدانها، أن تقف في وجه التحديات التي واجهتها ومحاولات القضاء عليها من قبل المستعمر.[1]

"ولما جاء المستعمرون والمبشرون غاظهم كل الغيظ أن يلتقوا بالإسلام في غرب إفريقيا، ليس دينا متمكنا في النفوس فحسب، ولكنه قوة حاكمة ودولة قائمة ،فلبسوا للمسلمين جلود النمر سلطوا عليهم سيوف المكر لا يرغبون فيهم إلا ولا ذمة بل شمروا عن ساعدهم في سبيل القضاء على آثار الإسلام واللغة العربية ،بكل جائز ومستحيل حتي ضربو الثقافة العربية بثقافتهم الأفرنجية وهدموا بنيان علماء الإسلام"[2] .("إن هذه الثقافة لم يصبها الضعف إلا عندما خضعت القارة الإفريقية للاستعمار الأوربي، وفرض كل مستعمر لغته في الإدارة والتعليم، غير أن لغة المستعمر ظلت –في الغالب– لغةَ التفاهم والتواصل بين الصفوة المتعلمة تعليما غربيا على اختلاف لغاتهم الأصلية، ولكن العامة في كل قطر ظلت تستعمل اللغات المحلية في أغلب الأحيان، وهي لغات متأثرة بالعربية تأثيرا كبيرا"؛ بسبب غلبة الثقافة العربية الإسلامية في مجتمعات غرب إفريقيا. وكان الحرف العربي هو الحرف الذي أصبح يكتب به أشهر اللغات في المنطقة مثل لغة الهوسا والفلاني والولوف والبمبارا واليوربا والكانوري. ولما احتلت فرنسا المنطقة في بدايات القرن العشرين، حاربت الحرف العربي حربا لا هوادة فيه، وأحلت محل الحرف

---

[2] آدم الألوري ، لإسلام في نيجيريا، ،ص ١١٠

[1] د.علي يعقوب جالو الثقافة الإسلامية في غرب أفريقيا وآثار الاستعمار الفرنسي فيها النيجر نموذجا، ،ص١٧

العربي الحرف اللاتيني، وحاربت كذلك اللغة العربية والثقافة الإسلامية السائدة في المجتمع، واتبعت في محاربتها أساليب متنوعة، وقبل ذكر الأساليب أرى أنه من الأفضل ذكر سياسة فرنسا الاستعمارية في إفريقيا. ولما هيمنت فرنسا على غرب إفريقيا ووجدت أن اللغة العربية هي لغة الدين والثقافة والحياة الإدارية، وقد أشار إلى هذا وليام بونتي حاكم عام لفرنسا بإفريقيا الغربية (من عام ١٩٠٨-١٩١١م)- في مرسومه الذي أصدره يوم ١٩١١/٥/٨م، وهو موجه إلى حكام المستعمرات التابعة له مثل النيجر والسنغال ومالي: "لقد أثار انتباه الباحث ما يحدث من عراقيل بسبب استعمال اللغة العربية في تحرير الأحكام الصادرة عن القضاء الأهلي، وفي المراسلات الرسمية مع الرؤساء والأعيان، وفي كل ظروف الحياة الإدارية تقريبا... إن العربية لم تدخل البلاد الإفريقية إلا مع الدعوة الإسلامية، وهي اللغة المقدسة في نظر الأسود!!". وانطلاقا من هذه الفكرة بذلة فرنسا أقصى جهدها في التصدي للغة العربية والثقافة الإسلامية بجمع الوسائل التي تعرقل مسيرة العربية وفرض قيود صارمة للحد من انتشار العربية، ومن هذه القيود ما يلي:[1]

أولا: فرض قيود صارمة لاستيراد الكتب العربية من البلدان العربية، حتى الحجاج منعوا من حمل الكتب الدينية والعربية معهم عند رجوعهم من الحج.

ثانيا: تشديد الرقابة على كل المطبوعات العربية سواء أرسلت بالبريد أو بغيره.

ثالثا: إحصاء كتب العلماء بغرض حصرها وفرض الرقابة عليها إن زادت أم لا؟ ومن ذلك قيامها بإحصاء كتب مكتبة الشيخ أحمد كيار، والشيخ حسن سليمان في مدينة زندر في النيجر.

رابعا: مراقبة المؤسسات الدينية الإسلامية حيث حددوا نطاق إنشاء المساجد؛ فكانت لا تسمح ببناء مسجد، إلا لأفراد يحظون بثقتهم وهم القلة بطبيعة الحال، وكان الاستعمار يخاف من المسجد خوفه من سائر المؤسسات الإسلامية؛ فبناء المسجد يعتبر وسيلة لتقدم الإسلام.

خامسا: حظر الاستعمال العربية في كل المرافق الإدارية والاقتصادية الاجتماعية، وكتب وليام بونتي بهذا الخصوص: "يجب حظر استعمال اللغة العربية، ليس فقط في تحرير الأحكام القضائية، ولكن يلزم أيضا الوقوف عن العمل بها في سائر النشاطات الإدارية التي تنفع الأهالي". فعمدت إلى نشر المدارس الفرنسية في سائر المدن والقرى، وقلصت حصص العربية وتعليم القرآن، ثم حذفتها نهائيا، بل وصل الأمر إلى حد منع الفرنسيين الموجودين في المنطقة من مخاطبة السكان بغير اللغة الفرنسية، مهما كانت الظروف والملابسات؛ لأنهم كانوا في بداية أمرهم يخاطبون ويراسلون السكان باللغة العربية، وبخاصة العلماء وطلاب العلم.

سادسا: فرض قيود صارمة لافتتاح مدرسة عربية؛ فأصدرت لذلك قرارات جائرة للحيلولة دون أداء المدارس العربية. ومن ذلك فرض على كل من يريد افتتاح مدرسة إسلامية ولو كتّابا أن يتقدم لامتحان خاص بهدف معرفة مستواه بهذه اللغة ،ومن ثم تدبير المكيدة له.

---

[1] علي يعقبو جالو، مرجع سابق، ص٢٠

سابعا: منع المتعلمين من ممارسة النطق باللغة العربية والتعامل بها بأي شكل من الأشكال، وبلغ من تعنتها أن حاولت استبدال اللغات المحلية في المجالس والمدارس باللغة العربية.

ثامنا: تصيد ضعاف القلوب من سكان المنطقة لتحطيم مقوماتهم الدينية والثقافية، بتسهيل سبل العلم والعمل لهم.

تاسعا: أخذ أبناء الشيوخ والأعيان عنوة وإرسالهم إلى مدارسهم لتغيير أفكارهم بل محوها .

عاشرا: تأسيس بعض مدارس عربية نظامية عصرية في بعض المدن، التي كانت مراكز للثقافة الإسلامية، فأسست مدرسة عربية في سان لويس بالسنغال، وأخرى في بوتلميت في موريتانيا، وأخرى في تمبكتو في مالي، ولما لاحظوا رفض العلماء إرسال أبنائهم إلى مدارسهم، حملوهم على التعليم الإجباري؛ وذلك بأخذ أبنائهم في مناطق متعددة وإدخالهم في تلك المدارس، وليحلوا محل آبائهم في تسيير شؤون الكتاتيب بعد تخرجهم.

حادي عشر: منع الطلبة الأفارقة الذين يريدون مواصلة التعليم في الدول العربية، سواء في شمال إفريقيا أو في مصر أو الحجاز، من السفر إليها إلا بعد تقديم طلب إلى الإدارة الفرنسية، قصد الترخيص لهم بالسفر، وغالبا ما تواجه الطلبات بالرفض، ولكن هذا الرفض لم يمنع بعضهم من الخروج من البلاد بطريقة أو بأخرى، والالتحاق بالجامعات الإسلامية مثل جامعة الأزهر والزيتونة في تونس، ومدارس الحجاز.[1] وقد ظهرت آثار هذه الأساليب على الثقافة الإسلامية بعد فترة من الزمن؛ وذلك بتناقص عدد المدارس الإسلامية وتلامذتها،ويصرح حاكم مقاطعة النيجر عام ١٩٢٣م [بريڤيه] "أما الآن فتقهقرت اللغة العربية، بل أوشكت أن تحتضر، وهذا يعتبر نجاحا باهراً للمستعمر بل هدف أسمى وغاية يريد تحقيقها . وإن إحصاء عدد الناشئة المتعلمة من المسلمين يتناقص في غرب إفريقيا،" وعزا الحاكم سبب هذا التقهقر إلى تناقص عدد الزعماء الإسلاميين [أي العلماء]، وإلى تزايد عدد مدارسهم التي زاحمت مدارس المشايخ المرابطين، وكذلك صرح [بول مارتي] لما قام بإحصاء المدارس الإسلامية، وتلامذتها بعد عشر سنوات تقريبا– وقال: "عدد المدارس والطلاب انخفض جدا مع استمرار الاستعمار". ومن خلال هذا السرد يتضح لنا جليا كيف كان حال العربية قبل المستعمر، وما الذي قام به المستعمر تجاه الإسلام ولغته، ولكن أقول وبكل اطمئنان وأنا شاهد في هذا العصر، يريدون ليطفؤا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون. لأن اللغة العربية قد ضمن الله لها البقاء، إلى يوم يقوم الناس لرب العالمين، عاش الإسلام أيام المستعمر غريبا، وعاد لآن وبكل قوة في غرب إفريقيا عموما وفي نيجيريا على وجه الخصوص ،جنبا بجنب مع العربية ،والحالة هذه صادمة للمستعمر ولا حول ولا قوة له. قد انتشرت المدارس العربية والإسلامية في جميع أنحاء أفريقيا الغربية، بل الجامعات والمؤسسات الإسلامية التي تدرس الدراسات الجامعية وحتى الدكتورة، ولها تصريح من بلدانها وتسير بكل ثقة واطمئنان، تنافس جامعاتهم ومؤسساتهم التي ورثوها لأذيالهم، فالله المستعان ولا أقول أن المعركة قد انتهت، بل صارت حرب بالوكالة مع عملائهم من أبناء جلدتنا، ومع كل هذا بدأنا نؤثر فيهم بأن يرسلوا أبناء في المساء

---

[1] علي يعقبو جالو، مرجع سابق، ص٢٣

إلى الإسلامية، بعد دراسة البوكو في الصباح ،وكذالك غزوناهم من حيث لا يدرون ببرنامج تعليم اللغة العربية للكبار يومي السبت والأحد، وقد استجابوا بكميات هائلة، وخاصة النساء، ومن تأثيرنا عليهم أنهم بدأوا يرسلون أبناءهم إلى الدول العربية وخاصة السودان ومصر والإمارات والكويت والسعودية، وهؤلاء ليس العامة منهم، بل علية القوم وقادتهم .وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الخلاصة:

مما لا يخفى على أحد ما للحج من آثار في تهذيب النفوس، إذ إنَّ الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة،ومن أجل هذا قام أهل السودان الغربي بتحمل المشاق والصعاب لأداء فريضة الحج، مما كان له أكبر الأثر على انتشار الإسلام في تلك البقاع من القارة الإفريقية جنوب الصحراء الكبرى، هذا بالإضافة إلى آثار رحلات الحج السياسية والحضارية على بلاد السودان الغربي.

كانت مملكة مالي، التى نشأت فى القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي في غرب إفريقيا، أعظم الممالك الإسلامية، التي قامت في غرب إفريقيا زمن السيادة الإسلامية ، ووصلت أراضيها إلى سواحل المحيط الأطلسي غربا ، واتصلت بتخوم المغرب الإسلامي شمالا ؛ أما حدودها الجنوبية فكانت تسكنها جماعات وثنية تسمى "اليسج". (تمثل جمهورية مالي الحديثة جزءا صغيرا فقط من مملكة مالي القديمة).

ومن **نتائج** رحلات الحج من بلاد السودان الغربي، توفير فرصة للحجاج لتعلم أمور دينهم من خلال الاحتكاك بإخوانهم المسلمين، أثناء أداء شعائر الحج ،وأثناء مرور الحجاج بالمراكز العلمية المشهورة في ذلك الوقت تمكن الحجاج من الالتقاء بالعلماء والفقهاء، واطلعوا على مؤلفاتهم في شتى العلوم ،ويعود الحجاج بعد ذلك بحماسة عالية وهمة كبيرة لتعليم الناس أمور دينهم بعد عودتهم من الحج.

وللغة العربية أهمية كبيرة في غرب إفريقيا، ولها تاريخ قديم في المنطقة، وقد توسعت الثقافة العربية بعد أن أصبحت غانا، دولة إسلامية، وبعد سقوط غانا واختفائها، بدأت مملكة مالي، تلعب الأدوار التي كانت تلعبها مملكة غانا الإسلامية سابقاً. ولمدينة تمبكتو، ومسجد سنكوري، فضل عظيم في بث الثقافة العربية الإسلامية. وفي مسجد سنكوري تخرَّج عدد لا يستهان به من العلماء المحليين؛ لأنه بمثابة جامعة الأزهر بمصر، والحقيقة أن اللغة العربية انتشرت في غرب إفريقيا مع انتشار الإسلام فيها، وتأسست الممالك والدول، التي اشترك فيها العرب والعجم في غانا، ومالي، وسنغى، وبرنو. واعتنى الملوك والأمراء بشأن التعليم، واستعانوا بالعلماء في فهم أمور الدين، وتطبيق الشريعة، فاضطر العلماء إلى التعمق في قواعد اللغة وآدابها، وفي أصول الشريعة وفروعها، فقصدوا بلاد العرب المجاورة لهم للاستفادة، واستقدموا إلى بلادهم العلماء العرب، لنشر العلوم بينهم، حتى نبغ الكثيرون، فألَّفوا الكتب، وقالوا الأشعار في الأغراض التي تناسب بيئتهم.

المصادر والمراجع:

القرآن الكريم

الحديث الشريف

٢- موسى عبد السلام مصطفى: ثنائية التعليم في نيجيريا .. اتجاهات وتطلعات أبيكن ١١/١٠ /٢٠١٠م.

ابن خلدون: عبد الرحمن بن محمد:العبر وديوان المبتدأ والخبر، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، عام ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م، ج١ ص ١٤٣

ابن خياط: أبو عمر خليفة:تاريخ خليفة بن خياط ،تحقيق أكرم ضياء العمري ،دار القلم ،مؤسسة الرسالة ، بيروت ،ط٢ عام ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م، ص٢٢٤

آدم حاج أبا: أثر الثقافة الإسلامية على غرب إفريقيا،للآداب والدراما المتأثرة بالثقافة الإسلامية،جامعة السودان للعلوم والتكنلوجيا، ٢٠٠٤م

علي يعقوب جالو : الثقافة الإسلامية في غرب أفريقيا وآثار الاستعمار الفرنسي فيها النيجر نموذجا

آدم عبدالله الألوري الإسلام في نيجيريا ،الشيخ عثمان بن فوديو الفلاني، ، الطبطة الثانية ١٩٧١م.

أمل بنت صالح الشمراني: رحلات الحج و آثارها على بلاد السودان الغربي في عصر دولتي مالي وسنغاي (٦٣٣-٩٩٩هـ/ ١٢٣٥- ١٥٩٨م.

أمين إسماعيل ساغاغي، علاقة السودان مع غرب أفريقيا "نيجيريا نموذجاً" ..

حسن أحمد محمود: الإسلام والثقافة العربية في إفريقية دار الفكر العربي، القاهرة ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٦م،، ص ١٦١.

حسن أحمد محمود، الإسلام والثقافة العربية في إفريقيا ،ص ٧٧.

الحميري: أبو عبد الله محمد بن عبد المنعم: الروض المعطار في خبر الأقطار ، تحقيق إحسان عباس، مكتبة لبنان ،بيروت ،ط٢ ،١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م ، ص ٢٩٥

رحلات الحج و آثارها على بلاد السودان الغربي في عصر دولتي مالي وسنغاي (٦٣٣- ٩٩٩هـ/ ١٢٣٥- ١٥٩٨م)

زهرة :عبد الغني عبد الفتاح :تاريخ انتشار الإسلام في إفريقية وأحوال المسلمين بها، مكتبة الرشد ، الرياض ط١ عام ١٤٢٨هـ/ م ٢٠٠٧، ص١٩٣

شيخو أحمد سعيد غلادنشي: حركة اللغة العربية وآدابها في نيجيريا من سنة١٨٠- سنة ١٩٦٦م، الطبعة الثانية ١٤١٤هـ ١٩٩٣م.

طه عبد الرحمن ساكن: إسهامات السودان في دفع عجلة اللغة العربية في نيجيريا، ورقة مقدمة: إلى المؤتمر الدولي المنعقد في بايرو- كانو في الفترة من ٩-١١-٦-٢٠١٥م.

علي يعقوب: جهود العلماء الأفارقة في نشر الثقافة الإسلامية والعربية "غرب إفريقيا أنموذجا"

نبيلة محمد حسن: تاريخ إفريقية الإسلامية : انتشار الإسلام في السودان الغربي من القرن الخامس حتى القرن التاسع الهجري ، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٧م .

نشر في سودانيل يوم ٢٣ - ١١ - ٢٠١٢

نعيم قداح :إفريقيا الغربية في ظل الإسلام ، الشركة الوطنية ،الجزائر ،ط٢ ،(د-ت) ص ٨٥

هارون المهدي ميغا: التاريخ الإسلامي في غرب أفريقيا.. تحت مطارق الباحثين،٣٠ / يناير ٢٠١٣م .

الهويمل :عبد العزيز بن سعد : انتشار الإسلام في السودان الغربي،رسالة ماجستير، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ،١٤١٢عام هـ/ ١٩٩٢م.

اليعقوبي :تاريخ اليعقوبي ج١ص٢٣٩، الدمشقي :محمد بن أبي طالب الأنصاري: نخبة الدهر في عجائب البر والبحر ، مكتبة المثنى ،بغداد ،(د-ت)، ص ٢٦٨

اليعقوبي: أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر: تاريخ اليعقوبي، ،دار صادر، بيروت (د-ت)، ج١ ص ٢٣٨، ٢٣٩.

مجلة قراءات إفريقية – العدد الثامن عشر ،شوال -ذي الحجة ١٤٣٤هـ،أكتوبر – ديسمبر ٢٠١٣م